الفصل الثالث

أثر الفكر الوضعي في الإسراف الاستهلاكي

سيطرة الفلسفة التسويقية الغربية في تحقيق الربح بتعظيم الاستهلاك، أدت بالوحدات الإنتاجية إلى تنويع إنتاجها ، وإضافة ميزات غير ضرورة تدعى بها مزيد من الاستفادة من السلعة المنتجة .

كما تعمد كثير من هذه الوحدات إلى إثارة غريزة التطلع الاجتماعي، وإثارة الرغبة في الاستعلاء والتمايز بادعاء مزايا وهمية ، لمجرد التحريض على الشراء وتحقيق أعلى الأرباح، ويلاحظ ذلك جليا في تقاليع الموضة لأزياء النساء .. وبعض ماركات السيارات التي تغير أسماء موديلات سياراتها، حتى يظل العميل فخورا باستحواذه على أحدث موديل، وقد علق على هذا التوجه، أحد مفكرى الغرب بقوله :

«إن مبالغ ضخمة تنفق في الدعاية، ونتيجة لذلك أصبحت كميات كبيرة من المنتجات الغذائية والطبية التي لا فائدة منها على الأقل، وغالبا ما تكون ضارة، أصبحت هذه المنتجات ضرورية لبني الإنسان المتحضرين، وعلى هذا المنوال ، فان شراهة الأفراد الذين وهبوا ذكاء كافيا يمكنهم من خلق تهافت الجمهور على طلب السلع التي لديهم، تلعب دورا رئيسيا في الدنيا العصرية»[1].

ومع تقدم وسائل الإعلام صار العالم كما لو كان يقيم في غرفة واحدة، يرى البعض البعض الآخر ... يعرف عنه ...يقلده .. يأخذ منه ويتأثر به ، ونتيجة لذلك ، انتقلت العادات الاستهلاكية الترفيه لمجرد رغبة الشعوب النامية في التقليد المظهري للحضارة الغربية .. وتلك طبيعة بشرية .. حيث تسعى الطبقات المتوسطة عادة إلى تقليد الطبقات الغنية .. وداخل الطبقات الغنية تسعي كل طبقة منها إلى الظهور بمظهر الطبقة التى هى أعلى من مستواها وهكذا .

وتواجه الدول النامية الآن هذا المأزق .. فالتقليد الحضاري صار مطلباً وطموحاً استهلاكياً ضاغطاً على كافة المحاولات للادخار من أجل البناء .

وحتى إن كان بعضها غنيا ، فإن ما أشاعه الابتزاز الاستهلاكي من التنعم والترف الزائد ، أدى إلى محدودية طاقة شعوبها على الاستيعاب الجاد لمقتضيات التطور الحضاري

---

١) ألكيس كاريل – تعريب : شفيق اسعد فريد – الانسان ذلك المجهول – مكتبة المعارف بيروت – ص٣٧

الصحيح من عمل مخلص وجهد عملي قادر على التجاوب وروح العصر.. لا مظهره ، وأدى إلى أزمة اقتصادية مزمنة في ميزانها التجاري وميزان مدفوعاتها ، وتحجيم القدرة على حشد المدخرات الوطنية ، التي يبتلعها الاستهلاك الترفي أولا بأول .

وقد التقطت الحضارة الغربية نقطة الضعف الإنساني هذه ، وعرفت كيف تعزف جيدا على أوتار تقليد الأقوى والأغنى ، واستطاعت بإمكانياتها الإعلامية الضخمة ، أن تجعل منتجاتها تتجاوز القارات ، وتضع ثقلها في الشعوب النامية الفقيرة .. وتسرب إليها عاداتها الاستهلاكية .. في وقت غالبا ما تكون هذه الشعوب غير مهيأة بإمكانياتها الاقتصادية المحدودة ، لمجاراة الإسراف الاستهلاكي.

وبهذه السياسة الاقتصادية تستنزف الرأسمالية ثروات الشعوب .. دون حاجة إلى سلاح كي تحارب ، ولا إلى احتلال كي تقود ، وإنما هي تمسك بزمام العالم من خلال ابتزاز التطلعات الاجتماعية وتنمية الطموح الاستهلاكي .. والتأثير على الشعوب كي تستهلك أكثر وأكثر .. وتلاحقه بالتقاليع والموضات .

ولم يقتصر هذا الابتزاز على المستهلك الفرد ، و إنما تعداه إلى ابتزاز الشعوب من خلال تجارة السلاح ، فإذا استغنت الشعوب عن تلك الأسلحة بالسلام المتبادل مع جيرانها، كان التحريش بينها والتحريض على الحرب والتهديد بها، من أجل بضعة أمتار هنا أو هناك تتوسطها أسلاك شائكة .

والإسلام لا يقر ادعاء مزايا وهمية في سلعة ، لأنه نوع من الغش ، ولا يقبل في نظامه العام ، توجيه بعض الموارد إلى الاستخدامات الترفيه ، بينما يعيش المجتمع أو بعض أفراده حالة أزمة اقتصادية.

ولا يتفق مع التوجهات التسويقية التي تهدف إلى المال من أجل المال، دون النظر إلى صالح الشعوب ومستقبل تنميتها ، فدعوة الإسلام قائمة على السلام المتبادل الذي تتكافأ فيه أطراف التعامل ، دون ابتزاز أو استغلال .

والتوجه التسويقي داخل المجتمع الإسلامي ، ينسجم مع طبيعة هذا المجتمع الذي ينبذ الإسراف والتبذير ومظاهر الترف ، ويتعامل مع السلع على أساس منافعها الحقيقة ومدى توفيتها لضرورات الاستخدام .

وهنا قد يبرز التساؤل : .

الدول الرأسمالية تتصرف في فائض الإنتاج بإثارة الشهوة إلى مزيد من الاستهلاك أو صناعة الحروب . فكيف يمكن للمجتمع الإسلامي التصرف في فائض الإنتاج ؟

ويرد على ذلك، بأن الطموح العام للمجتمع الإسلامي قائم على دعوة الإنسانية كلها إلى توحيد عبادة الله ﷻ ، والجهاد في سبيل ذلك ، بما يجعل التوجه الإنتاجي للأمة في حالة من الإستنفار والتشغيل الكامل، لتحقيق طموح الأمة في سبيل التمكين لكلمة الله في الأرض، وليس لتحقيق مزيد من التنعم والترف، على نحو ما يسعى إليه التسويق في العالم الغربي.

فالطاقة الإنتاجية للأمة موجهة إلى بناء كيان اقتصادي قوى ، لدية من عوامل القوة والمنعة ما يواجه به أطماع المتآمرين على مستقبل الأمة، ويدعم القدرة على المواجهة مع أعداء الإسلام وحماية المستضعفين في مختلف أنحاء العالم، والتمكن من إبلاغ كلمة الحق جل شأنه إلى كافة الخلق.